

المحاضرة الثانية: فرقة القدرية والجبرية.

أولاً: فرقة القدرية.

1. تعريف القدرية:

فرقة كلامية خاضت مسألة هل الإنسان مخير أم مسير، ذهبت إلى إنكار تعلّق قضاء الله تعالى وقدره بأفعال العباد، فقرّرت أن أفعال الإنسان ليست مخلوقة لله تعالى، بل هي صادرة عن العبد استقلالاً، وأنه الخالق لفعل نفسه على وجه الانفراد. كما تبنت القول بأن علم الله تعالى بالأشياء إنما يكون بعد وقوعها، لا قبل حدوثها. وهم بالتالي ينفون اللوح المحفوظ، فالقدر على حسب ما ذكر ابن حجر في تعريفه: "المراد أن الله -تعالى- علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته"؛ وهم بالتالي يخالفون ركن أساسي من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

2. نشأة القدرية:

أما عن بداية القول في القدر، فقد حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حادث بسيط، حيث خرج يوماً على بعض أصحابه، فوجدهم يتجادلون ويتنازعون في مسألة القدر (أي: هل الإنسان مجبور أم مخير؟ وكيف تُكتب الأقدار؟ ونحو ذلك من تفاصيل الغيب).

فلما سمع جداهم اشتد غضبه، حتى احمرّ وجهه ﷺ كأنما فُقي في وجنتيه حبّ الرمان من شدة الغضب، ثم قال: "أهكذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه". وبالتالي لم يحدث في عهد الخلفاء الراشدين أن تكلم الناس في القدر، وقد حدث فقط أن أبا عبيدة بن الجراح اعترض على رجوع عمر بالناس عن دخول الشام بعدما انتشر فيها طاعون عمواس، فقال لعمر: "يا أمير المؤمنين أفرار من قدر الله؟، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، رأييت إن كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان: إحداها خصيبة والأخرى جدبية أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيب الجدبية رعيتها بقدر الله".

أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصر بقال له "سنسويه"، وهذا كان نصرانيا ثم أسلم ثم تنصر، وقد أخذ منه كل من معبد الجهني وأخذ عن هذا الأخير غيلان الدمشقي، وقال يونس بن عبيد "أدركت البصرة وما بما قدرني إلا سنسويه ومعبد الجهني، وآخر ملعون في بني عوفاه".

3. حديث النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية:

أ. روى أبو داود عن عبد الله بن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم".

ب. عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث أخاف على أمتي: الاستسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيب القدر".

4. موقف الصحابة من هذه الفرق:

أثار الصحابة الأحياء في ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وأنس بن مالك حربا على أصحاب هذه المقالة، روى الإمام مسلم عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتفتته (يعني صرنا في ناحيته) أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكمل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتفقرون (يطلبون) العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني)، والذي يخلف به عبد الله بن عمر (لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا، فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر).

5. تطور القدرية:

انقسمت إلى القدرية إلى نوعان:

النوع الأول: القدرية الغلاة وهم القدرية الأوائل الذين نفوا القدر وأن الإنسان هو خالق لأفعاله بنفسه.

النوع الثاني: القدرية الثانية، الذين أظهروا قول إن الله تعالى خلق كل أفعال الخير وأرادها ولم يخلق أفعال الشر ولا أرادها، وقد أخذت المعتزلة من هذا القول فيما بعد، فقد قال واصل بن عطاء رأس المعتزلة أن الشر لا يجوز إضافته إلى الله تعالى لأن الله تعالى حكيم.

6. الأصول العقدية للقدريّة:

نفي القدر والقدرة الإلهية: الاعتقاد بأن الله لم يخلق أفعال العباد، وأن العبد هو خالق أفعال نفسه، خيرها وشرها. إنكار عموم المشيئة: القول بأن كل ما يقع في الكون لا يريده الله، خاصة الكفر والمعاصي لأنهم يعتقدون أن الله لا يشاء إلا ما يحب.

الأمر أنف: وهي المقولة التي عرفت عن معبد الجهني وتعني أن الله تعالى لا يعلم بأفعال العباد إلا بعد وقوعها. الغلو في إثبات العدل: تبرير نفي القدر بأنهم أرادوا تنزيه الله عن ظلم العباد، قائلين إن الله لا يعاقب العبد على فعل لم يخلقه الله فيه.

7. مصير القدريّة:

شهدت القدريّة معارضة قوية من جانب السلطة السياسية الأموية، التي اعتبرت أطروحاتها الفكرية ذات أبعاد تمسّ بشرعية الحكم القائم، لما تحمله من تأكيد على حرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، وهو ما يمكن أن يُفهم ضمناً على أنه نفي لفكرة الجبر التي استثمرت سياسياً لتبرير الواقع القائم. كما واجهت القدريّة انتقادات حادة من عدد من العلماء والفقهاء، الذين رأوا في تصوراتها حول القدر خروجاً عن التصور العقدي السائد ومخالفة لما استقر عليه فهم جمهور أهل السنة في مسائل القضاء والقدر. وقد أسهم هذا التلاقي بين الرفض السياسي والمعارضة الدينية في تضيق الخناق على أتباع هذا الاتجاه، وتعرّض بعض رموزه للملاحقة والاضطهاد، بل وصل الأمر إلى قتل بعض زعمائه من أمثال معبد الجهني المقتول على يد الحجاج سنة 80هـ وغيلان الدمشقي المقتول سنة 105هـ والذي أمر بذلك هو الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بعد مناظرة بين غيلان والإمام الأوزاعي، تبين انحراف غيلان فأمر بقطع يده ورجله وشم قتله.

ثانيا: الجبرية.

1. تعريف الجبرية:

الجبر في اللغة يعني القهر والإكراه، أما معنى الجبر الاصطلاحي فهو أن العباد مجبورون ومضطرون في كل أفعالهم وأعمالهم، لأن الفاعل الحقيقي لكل أفعالهم وأعمالهم هو الله تعالى وحده، الذي تفرد بخلقها وفعلها، إذ لا فاعل ولا قادر إلا هو سبحانه وتعالى، وعلى هذا الأساس يقول رأس الجبرية الجهم بن صفوان: "لا قدرة للعبد البتة، والإيمان والكفر من خلق الله في الكافر والمؤمن، وكذلك سائر تصرفاته"، وبالتالي ففرقة الجبرية مثلها مثل القدرية هي فرقة كلامية خاضت في مسألة هل الإنسان مخير أم مسير.

2. نشأة الجبرية:

كان إبليس لعنه الله أول من قال بالجبر، وهو عندما احتج أمام الله تعالى بقوله: "رب بما أغويتني"، فتبعته الجبرية في هذا الاحتجاج، فقالوا: "لا قدرة ولا مشيئة لنا، بل نحن مجبورون على أفعالنا". ويقال إن أول من قال بهذا الكلام الجعد بن درهم المقتول سنة 124هـ، ومن ثم نشر هذا المذهب الجهم بن صفوان الذي تتلمذ على يد الجعد بن درهم، كما أصبحت الجبرية تعرف كذلك بالجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان والذي نشر هذا المذهب وأصبح له تبع كثير.

3. أهم أعلام الجبرية (الجهمية):

الجهم بن صفوان: (ت 128 هـ / 746م) وهو مؤسس الفرقة، وإليه تنسب الجهمية، وهي من أشهر فرقها، وكما ذكرنا سابقا كان تلميذا عند الجعد بن درهم ومن ثم انفصل عنه وأسس مذهبه الخاص، وقتل على يد سلك بن أحوز المازني قائد الجيش الأموي بسبب مشاركته في تمرد الحارث بن سريج.

الجعد بن درهم: (ت 124 هـ / 742م)، وقد ذكرنا أنه أكثر من تأثر بهم الجهم بن صفوان، ذكر أنه قُتل على يد والي العراق خالد بن عبد الله القسري.

صالح بن عبد القدوس: (ت 167 هـ / 783م)، وهو من أتباع الجهم بن صفوان.

4. أصول فرقة الجبرية:

* أصل معتقد الجبريون مبني على أنه لا قدرة ولا استطاعة، وأن كل الأفاعيل من الله تعالى، وحجتهم في ذلك تأويل الآيات القرآنية على حسب أهوائهم ومن الأمثلة:

أ. قوله تعالى: "ومن يرد الله فتنته، فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم".

ب. وقوله تعالى: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء".

ت. قوله تعالى: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء".

ث. اجتمع بعض الجبرية يوما وقرأوا قوله تعالى "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي"، فقالوا: هو الله منعه، ولو قال إبليس ذلك لكان صادقا، وقد أخطأ إبليس الحجة، ولو كنت حاضرا لقلت له: أنت منعه.

* الجنة والنار ليسا أبديين، مثل الآخرين، إلا الله سبحانه وتعالى أبدي.

* الإيمان معروف في القلب، هذا يعني أنه لا يزال يقال إن البشر لديهم إيمان بالرغم من تركهم الفروض وارتكاب الكبائر.

* كلام الله (القرآن) مخلوق.

* إنكار رؤية الله تعالى في الآخرة.

* إنكار الصفات والأسماء لله تعالى.

5. مصير الجبرية:

أفضى الجدل العقدي الذي دار بين الجبرية والفرق المخالفة لها إلى تصاعد حدة المواجهة الفكرية بينها وبين طيف واسع من العلماء والفقهاء، الذين اعتبروا أطروحاتها — ولا سيما في مسألة نفي قدرة الإنسان الاختيارية وإثبات الجبر المحض — مناقضة لأصول التكليف الشرعي ومقاصده، ومخالفة لما استقر عليه جمهور المتكلمين وأهل الحديث في تقرير العلاقة بين القدرة الإلهية وكسب العبد. وقد ترتب على ذلك تعرض الجبرية لانتقادات علمية واسعة، وإقصاء فكري في عدد من البيئات العلمية، فضلاً عن تضيق اجتماعي وسياسي في بعض المراحل. وأسهمت هذه العوامل مجتمعة في انحسار حضورها العقدي وتراجع تأثيرها في مسار تطور الفكر الكلامي الإسلامي عبر العصور اللاحقة.

القاعدة الرئيسية للرد على الجبرية والقدرية:

"أفعال العباد تنسب إلى الله خلقاً وإيجاداً وتقديرًا، وتنسب إلى العبد انتساباً وتحصيلًا

واقترافًا".